



عودة العيد

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيد

ح مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

عودة العيد . - الرياض

... ص؛ ... سم. - (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك X-٢٣٣-٢٠-٩٩٦٠

١- القصص البوليسية العربية أ- العنوان ب- السلسلة

١٧/٠١٤٠

ديوي ٨١٣، ٠٨٧٢

رقم الإيداع : ١٧/٠١٤٠

ردمك X-٢٣٣-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ

الطبعة الثانية - مكررة

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

هَلْ هِلَالُ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْمُبَارَكِ ، واقتَرَبَ عِيدُ الْأُضْحَى ،
وبدأنا ، نحنُ تلاميذَ المدرسةِ القرآنيةِ ، نخرُجُ في أوقاتِ فراغنا
إلى السُّوقِ لِنَتَفَرَّجَ على الكِبَاشِ والماعِزِ والخِرَفَانِ الَّتِي تُباعُ
لِتُذْبَحَ يَوْمَ الْعِيدِ .

كَانَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ الْقَطِيعِ كَحَلَقَةٍ مُحْكَمَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَى
الْكِبَاشِ الْمُتَرَاصَّةِ فِي وَفْقَتِهَا ، لَا تَرَى إِلَّا رُؤُوسَهَا مِنْ كُومَةِ
الصُّوفِ . . . وكانتِ الْأَعْيُنُ تَنْظُرُ إِلَى الرُّؤُوسِ وَالْقُرُونِ
وَالْوُجُوهِ ، وَالْأَيْدِي تَتَحَسَّسُ الظُّهُورَ وَالْأَوْرَاكَ وَالذُّيُولَ بَحْثًا عَنْ
الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ .

وَكُنَّا ، نحنُ الصِّغَارُ ، نَتَسَلَّلُ بَيْنَ الْأَرْجُلِ لِنَصِلَ إِلَى
الْمَقَدِّمَةِ ، لِنَتَفَرَّجَ عَلَى الْخِرَافِ ، وَنَلْمَسَ صُوفَهَا وَقُرُونَهَا ،
وَنَقْرَصَ ذِيولَهَا لِنُحَاوِلَ الْفِرَارَ وَتُبْعِيعَ وَتَقُومَ بِفَوْضَى .

وفي شوارع المدينة، كَانَ النَّاسُ يُسَوِّفُونَ (الحوالي) (١)، كُلُّ حَسَبَ طَرِيقَتِهِ: مِنْهُمْ مَنْ يُجْرِهَا مِنْ قُرُونِهَا وَهِيَ تُثَبِّتُ حَوَافِرَهَا فِي الْأَرْضِ رَافِضَةً أَنْ تَتَحَرَّكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَرْفَعُ قَائِمَتِهَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ وَيَدْفَعُهَا أَمَامَهُ كَالْبَرْوِطَةِ (٢) . . .

وكانَ النَّاسُ يَقْفُونَ لِلتَّفَرُّجِ عَلَى هَذَا الْمَشْهَدِ سَائِلِينَ:

- بِكُمْ هَذَا الْمَبْرُوكُ ؟

فَكَانَ أَصْحَابُهُ يُجِيبُونَ إجابَاتٍ مُقْتَضِبَةً، وَهُمْ يَمَسْحُونَ الْعَرَقَ عَنْ جَبَاهِهِمْ بِأَكْثَامِ قُمَصَانِهِمْ، وَيَسْتَأْنِفُونَ الْجَرَ أَوْ الدَّفْعَ.

وَلَمْ نَكُفَّ عَنْ الْخُرُوجِ لِلسُّوقِ وَالتَّفَرُّجِ عَلَى الْقُطْعَانِ، حَتَّى اشْتَرَى أَهْلُنَا لَنَا كِبَاشَ الْعِيدِ. وَاتَّفَقْنَا، نَحْنُ أَوْلَادُ الْحَوْمَةِ، عَلَى إِخْرَاجِ كِبَاشِنَا مَعًا لِنَرَعَاهَا. وَكُنَّا نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ وَلَدًا، فَكُنَّا نَخْرُجُ بِقَطِيعٍ يَجَاوِزُ عَدَدَنَا قَلِيلًا.

(١) الحوَالَى: جمع حَوْلَى، الكبش الذي مرَّ عليه حَوْلٌ أي سنة كاملة.

(٢) عربة شحني ذات عجلة واحدة تدفع باليدين.



وَكَانَ يَتَقَدَّمُنَا، وَنَحْنُ نَهْشُ عَلَى غَنَمِنَا، «رَحَّالُ الْبَرَّاقِ»
بِمِزْمَارِهِ، يَعِزُّفُ عَلَيْهِ، وَيَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الْحَانَةَ
الْجَمِيلَةَ سَتَجْعَلُ الْخِرْفَانَ تَتَّبِعُهُ.

وَكُنَّا نَحْنُ نَدْفَعُهَا مِنَ الْخَلْفِ حَتَّى نَصِلَ إِلَى غَابَةِ «سَيِّدِي
الْغَزَوَانِي» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ.

فَرُغِمَ وَقُوعِ مَسْجِدِ سَيِّدِي الْغَزَوَانِي وَسَطَ الْمَدِينَةِ فَاصِلًا
أَخْضَرَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ الْقَدِيمَةِ الْمُحَاطَةِ بِالسُّورِ، وَالْمَدِينَةِ الْأُورُوبِيَّةِ
الْحَدِيثَةِ، فَقَدْ كَانَ شِبْهَ غَابَةِ مَهْجُورَةٍ وَكَانَتْ تَبْتُ بِهِ أَخْرَاشُ
كَثِيفَةٌ مِنْ شَجَرِ الدِّلْمِ وَالزَّيْتُونِ وَالصَّفْصَافِ وَكَثِيرَ مِنَ
الْأَعْشَابِ الْمُشْبِعَةِ لِلْحَيَوَانِ الْمُجْتَرِّ.

وَهُنَاكَ كُنَّا نَطْلُقُ غَنَمَنَا وَنَتَفَرَّجُ عَلَيْهَا وَهِيَ تَرْتَعِي وَتَلْعَبُ
حَتَّى سَاعَةِ الْغُرُوبِ، فَنُعِيدُهَا إِلَى دِيَارِنَا شُبْعَانَةً وَنَحْنُ
جَائِعُونَ.

وَتَعَلَّمْنَا كَيْفَ نَجْعَلُ أَغْنَامَنَا تَتَّبِعُنَا، وَذَلِكَ بِالتَّلْوِيحِ لَهَا
بِأَعْشَابِ «الْبَرُوقِ» أَوْ الْعَسْلُوجِ الشَّاكِكِ الْحُلُوِّ. وَكُنَّا نَأْتِيهَا



بالخُبْزِ وَالشُّكَّرِ وَحُبُوبِ الشَّعِيرِ لِمَكَافَأَتِهَا عَلَى طَاعَةِ أَوَامِرِنَا . وَلَمْ
تَعُدْ لَنَا صُعُوبَةً فِي أَخِذِهَا إِلَى الْمَرْعَى أَوْ الْعُودَةِ بِهَا مِنْهُ ؛ فَقَدْ
كَانَتْ تَجْرِي خَلْفَنَا بِحِمَاسٍ وَسَعَادَةٍ .

وَذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ نَلْعَبُ لَاهِينَ عَنِ الْأَغْنَامِ بِمَا صَنَعْنَاهُ مِنْ
قَسِيٍّ وَسِهَامٍ وَنَوَاوِيلَ ، نُمَثِّلُ الْهُنُودَ الْحُمْرَ ، وَرُعَاةَ الْأَبْقَارِ ، إِذْ
وَقَفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ عِمْلَاقٌ ، عَلَيْهِ سِيَاءُ الْبَادِيَةِ . كَانَ يَلْبَسُ
جَلْبَابًا تُرَابِيَّ اللَّوْنِ ، وَيَتَعَمَّمُ بِشَالٍ مُزْرَكَشٍ بِالْحَرِيرِ الْأَصْفَرِ .
وَكَانَتْ لَهُ لَحْيَةٌ سُدُودَاءُ قَصِيرَةٌ ، وَعَيْنَانِ ثَاقِبَتَانِ ، عَلَيْهِمَا حَاجِبَانِ
كَثِيفَانِ .

وَتَفَرَسَ فِينَا جَمِيعًا بِنَظَرَاتِهِ الثَّاقِبَةِ . وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيَّ
حَتَّى انْفَرَجَ وَجْهُهُ الْكَبِيرُ الْأَحْمَرُ عَنْ ابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ
بِأَصْبَعِهِ :

- أَنْتَ هُوَ . أَنْتَ أَحْمَدُ ابْنُ أَخِي ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

وَلَمْ يَنْتَظِرْ جَوَابِي فَسَعَى نَحْوِي ، وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَمَامِي ،
وَعَانَقَنِي بِحَنَانٍ كَبِيرٍ ، قَائِلًا :



- طَبْعًا أَنْتَ لَا تَعْرِفُنِي! كَيْفَ تَعْرِفُنِي وَأَبُوكَ حَابِسٌ لَكَ هُنَا، بَيْنَ جُذُرَانِ الْمَدِينَةِ، كَالدَّجَاجَةِ فِي الْحُمِّ؟ كَمْ مَرَّةً قُلْتُ لَهُ أَنْ يَبْعَثَكَ إِلَيْنَا فِي الْجَبَلِ لِتَتَعَرَّفَ أَبْنَاءَ عَمِّكَ، وَتَعِيشَ مَعَهُمْ قَلِيلًا، وَتَنْعَمَ بِرُكُوبِ الْخَيْلِ وَشُرْبِ الْحَلِيبِ السَّاخِنِ مِنْ ضِرْعِ الْأَبْقَارِ وَالْمَاعِزِ، وَقَطْفِ الْفَوَاكِهِ الطَّازِجَةِ مِنَ الْأَشْجَارِ.

وَوَقَّفَ حَوْلَنَا زُمَلَاءِي الصُّغَارُ وَهُمْ يَحْسُدُونَنِي عَلَى هَذِهِ الْحِظْوَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي نَزَلْتُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ، خُصُوصًا حِينَ تَنَاوَلَ عَمِّي قُبَّةً^(١) وَأَخْرَجَ مِنْهُ شَيْئًا بَهْرَ الْجَمِيعِ، وَجَعَلَ عُيُونَهُمْ تَرشُقُنِي غَيْرَةً وَحَسَدًا. أَخْرَجَ لِي كُرَةً كَبِيرَةً مَلُونَةً، وَنَاوَلَنِيهَا قَائِلًا:

- خُذْ. هَذِهِ لَكَ. اشْتَرَيْتُهَا لَكَ مِنْ طَنْجَةٍ.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، وَأَخْرَجَ قِرطاسًا فَفَتَحَهُ بِأَصَابِعِهِ الضَّخْمَةِ الْخَشِنَةِ، فَوَضَعَ فِي كَفِّي مِنْهُ حَفْنَةً مِنْ حَلُويَاتِ الْجَبَلِ الْمَلُونَةِ، ثُمَّ أَخَذَ يوزِّعُ عَلَى بَقِيَةِ الزُّمَلَاءِ، وَهُمْ يَتَنَاوَلُونَ الْقِطْعَ

(١) الْقُبَّةُ: غطاء الرأس وطرف من الجلباب.



شَاكِرِينَ لَهُ وَلِي هَذِهِ الْمَفْاجَأَةِ السَّارَةِ .

وَبَعْدَ هَذَا دَفَعَنِي عَمِّي - الَّذِي سَقَطَ هَدِيَّةٌ مِنَ السَّمَاءِ - قَائِلًا :

- أَلَا تُجَرِّبُ كُرْتَكَ الْجَدِيدَةَ ؟ الْعَبَّ مَعَ أَصْحَابِكَ . اذْهَبُوا
إِذَا سِتْتُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْأَمْلَسِ ، وَالْعَبُّوا هُنَاكَ .

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، اخْتَطَفَ صَدِيقِي «عِنَانُ» الْكُرَةَ مِنْ بَيْنِ
يَدَيِ ، وَرَمَاهَا نَحْوَ الشَّاطِئِ ، فَتَبِعْنَاهَا صَائِحِينَ مَبْتَهَجِينَ ،
يَدْفَعُ بَعْضُنَا الْبَعْضَ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى رَمْلِ الْبَحْرِ ، فَتَوَقَّفْنَا عَنْ
اللَّعِبِ ، وَعُدْنَا إِلَى حَيْثُ تَرَكْنَا قَطِيعَنَا فِي حَدِيقَةِ سَيِّدِي
الْغَزَوَانِي ، فَصُدِّمْنَا بِالْمَفْاجَأَةِ الرَّهِيْبَةِ . . .

كَانَ عَمِّي الْمَزْعُومُ قَدْ اخْتَفَى فَجَاءَ ، كَمَا ظَهَرَ فَجَاءً . انْشَقَّتِ
الْأَرْضُ وَبَلَغَتْهُ وَبَلَغَتْ مَعَهُ قَطِيعَ كِبَاشِنَا . . !

صُعِقْنَا أَوَّلًا لِلْمَفْاجَأَةِ . وَلَمْ نَدْرِ مَا نَفْعَلُ ، ثُمَّ تَفَرَّقْنَا وَسَطَ
الْغَابَةِ نَبْحُثُ وَنُنَادِي حَتَّى التَقَى بَعْضُنَا الْبَعْضَ عَلَى أَطْرَافِهَا ،
وَلَا أَثَرَ لِكَبِشٍ مِنْ كِبَاشِنَا . . .

وَنَزَلْنَا إِلَى بُيُوتِنَا ، وَبَعْضُنَا يَبْكِي مُتَوَقِّعًا مَا سَيَأْتِيهِ مِنْ عِقَابٍ



عَلَى هَذَا الإِهْمَالِ الْفَظِيعِ . وَقَرَّرَ الْبَعْضُ أَلَّا يُعْودُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ ،
وَأَنْ يَسْتَجِيرُوا بِالْأَقَارِبِ .

وَبَاتَ الْجَمِيعُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي سَعِيرٍ مُحْرِقٍ مِنْ غَضَبِ الْعَائِلَةِ
وَسَخَطِهَا . وَلَوْ مَرَرْتَ بِحَوْمَتِنَا لَهَالَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ صُرَاخٍ
وَبُكَاءٍ ، وَكَأَنَّكَ فِي مَاتَمٍ جَمَاعِيٍّ .

وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ اجْتَمَعَ رِجَالُ الْحَوْمَةِ فِي
جَامِعِ ابْنِ عِيَادٍ ، وَعَقَدُوا شِبْهَ مُؤْتَمَرٍ مَفَاجِئٍ ، وَتَزَعَّمَ الْاجْتِمَاعُ
عَبْدُ السَّلَامِ الْبَيْضَاوِيُّ ، سَاقِئُ الشَّاحِنَةِ ، فَقَالَ :

- يَجِبُ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ السَّارِقِ حَالًا ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ
سَرِقَتِهِ . يَجِبُ أَنْ نَقْبِضَ عَلَيْهِ وَنَسَلِّمَهُ لِرِجَالِ الْأَمْنِ وَالْإِلَّا
أُصْبَحْنَا أَضْحُوكَةَ الْمَدِينَةِ .

وَلَمْ يَتَحَمَّسْ أَغْلَبُ الْحَاضِرِينَ لَانْشَغَالِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ
وَوُضَائِفِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعَمَلِيَةِ . فَأَجَابَ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا :
- يَنْبَغِي أَنْ نُخَبِّرَ رِجَالَ الْأَمْنِ وَالشَّرْطَةِ بِالسَّرِقَةِ ، وَنَتْرِكَ
الْأَمْرَ بِأَيْدِيهِمْ ؛ فَهَذَا شُغْلُهُمْ .

وَقَالَ آخَرُ مُؤَيِّدًا هَذَا الْاِقْتِرَاحَ :

- بَخْشًا عَنِ اللَّصِّ رَبِّمَا اعْتَبِرْ تَدْخُلًا فِي شُؤُونِ رِجَالِ
الْأَمَنِ .

وَعَلَّقَ أَحَدُ الْمُتَشَائِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَمَلٌ فِي اسْتِرْجَاعِ
الْمَسْرُوقِ بِقَوْلِهِ :

- خَلَفَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ! مَنْ يَسْرِقِ الصَّوْمِعَةَ يَحْفَرُ لَهَا بُئْرًا
لِيَذْفِنَهَا فِيهِ .

وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ عَلَى هَذَا الْمِنَوَالِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْمُثْبَطَةِ .

وَعَظِبَ الْبَيْضَاوِيُّ وَخَرَجَ مِنَ الْجَامِعِ نَائِرًا وَهُوَ يُرَدِّدُ :

- سَأَبَحْتُ عَنْ كَبْشِي وَحَدَّهُ . هَؤُلَاءِ مِثْلُ الَّذِي يَقَالُ عَنْهُ :
« أَنْتَ بِاللُّقْمَةِ إِلَى فَمِهِ وَهُوَ بِالْعُودِ إِلَى عَيْنَيْكَ » !

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ بَقِيََتْ سَجِينُ الْبَيْتِ أَرَا جَعُ دُرُوسِي بِأَمْرِ مِنْ
أَبِي ، عُقُوبَةً لِي عَلَى غَبَاوَتِي وَإِهْمَالِي .

وَخَرَجَ الْوَالِدُ إِلَى عَمَلِهِ فَسَمِعْتُ وَأَنَا وَسَطَ الدَّارِ صَوْتَ
« تَسْتُ » ، فَرَفَعْتُ عَيْنِي نَحْوَ السَّطْحِ ، فَإِذَا صَدِيقِي عِنَانٌ يَلُوحُ

لي باستعجالٍ وَيَطْلُبُ مِنِّي الصُّعُودَ إِلَيْهِ .

وفي السَّطْحِ أَخْبَرَنِي بِأَخْرِ الْأَحْدَاثِ ، وَكَانَ أَهْمُهَا تَنْجِةُ
الْمُؤْتَمِرِ الْمُتَخَاذِلِ ، وَطَرَدُ صَدِيقِنَا الْبَرَّاقِ مِنْ دَارِهِ . طَرَدَهُ زَوْجُ
أُمِّهِ ، رَغْمَ تَوَسُّلِهَا إِلَيْهِ ؛ جَزَاءً لَهُ عَلَى ضِيَاعِ الْكَبِشِ .

وَحَزَّ فِي نَفْسِي هَذَا الْحَبْرُ . خُصُوصًا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لِي الْقُدْرَةُ عَلَى
إِيوَائِهِ أَوْ مَسَاعَدَتِهِ .

واقترح عِنَانُ اجْتِمَاعًا لَنَا ، نَحْنُ الصَّغَارُ أَصْحَابُ الْكِبَاشِ
الْمَسْرُوقَةِ ، بِمَسْجِدِ سَيِّدِي الْعَزْوَاني . فَرَحَّبْتُ بِالْفِكْرَةِ ، وَذَهَبْنَا
نَدُقُ أَبْوَابَ رِفَاقِنَا وَنُخْرِجُهُمْ ، حَتَّى اجْتَمَعَ أَزِيدُ مِنْ عَشْرَةٍ ،
وَذَهَبْنَا عَبْرَ الشَّاطِئِ إِلَى غَايَتِنَا ، وَهَنَّا جَلَسْنَا نَقْلُبُ الْأَمْرَ عَلَى
جَمِيعِ وُجُوهِهِ ، عَمَلًا بِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ : «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» .

وَكَانَتْ تَحْدُونَا فِكْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، هِيَ إِنْقَاذُ الْبَرَّاقِ مِنَ التَّشْرِدِ .
وَفِي النِّهَايَةِ انْتَهَيْنَا إِلَى قَرَارٍ هُوَ أَنْ نَقُومَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْكِبَاشِ
بِأَنْفُسِنَا . وَكُنَّا مَذْرُكِينَ أَنْ مَنْ سَرَقَهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبِيعَهَا فِي
الْمَكَانِ نَفْسَهُ الَّذِي سَرَقَهَا مِنْهُ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ بِهَا بَعِيدًا كَذَلِكَ .

وتَسَاءَلْتُ :

- يا تُرى ، هَلْ نَسْتَطِيعُ إِقْنَاعَ الْبِيضَاوِيِّ صَاحِبِ الشَّاحِنَةِ
بِمَسَاعَدَتِنَا عَلَى التَّنْقُلِ فِي شَاحِنَتِهِ بَيْنَ الْأَسْوَاقِ ؟

فَصَفَّقَ الْجَمِيعَ لِلْفِكْرَةِ . خُصُوصًا وَالْجَمِيعُ يَعْرِفُونَ حِمَاسَهُ
لِلْبَحْثِ .

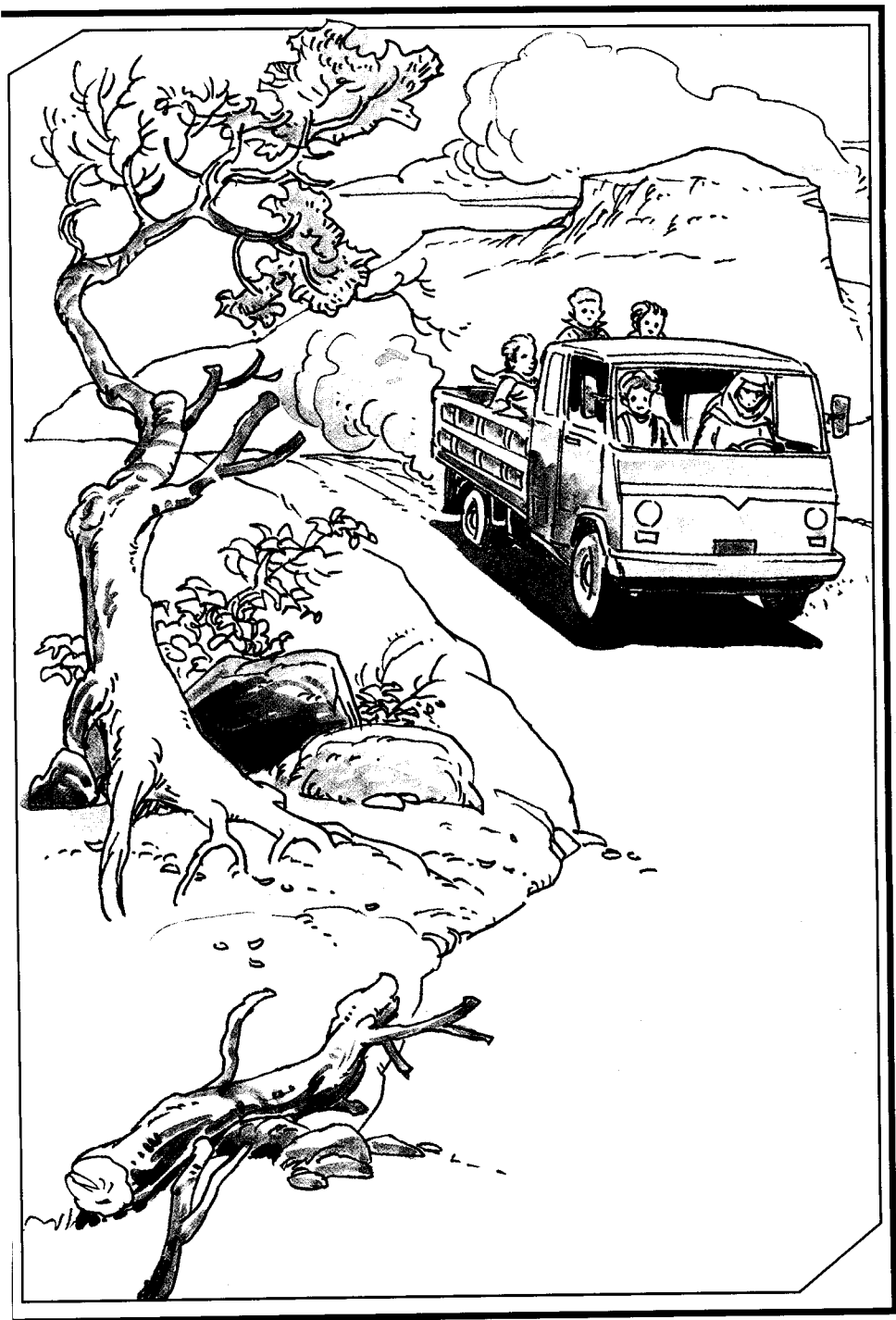
وَذَهَبْنَا لِمُقَابَلَتِهِ بِالْمَرْآبِ ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا يَمْسَحُ يَدَيْهِ مِنَ الزَّيْتِ
بِخِرْقَةٍ سَوْدَاءَ . وَمَا إِنْ اسْتَمَعَ إِلَى اقْتِرَاحِنَا حَتَّى تَهَلَّلَ وَجْهُهُ .
وَأَضْفْتُ أَنَا :

- نَحْنُ نَعْرِفُ كِبَاشَنَا جَيِّدًا . وَيُمْكِنُنَا الْعُثُورُ عَلَيْهَا
بُسْهُولَةٍ .

وَرَدَّ رَحَالٌ :

- وَهِيَ تَعْرِفُنَا كَذَلِكَ .

وَلَمْ تَمُضْ لِحِظَةٍ حَتَّى كُنَّا نَمْلَأُ ظَهَرَ الشَّاحِنَةِ مَتَوَجِّهِينَ نَحْوَ
(خَمِيسِ السَّاحِلِ) نَهْتَفِ وَنُغْنِيَ الْأَنَاشِيدَ .



وعلى طرف السوق توقفت بنا الشاحنة ونزلنا . وقبل أن نبدأ
جمعنا البيضاوي ، وقال :

«ستفرون على حلقات السوق ، وتنظرون وتنعمون النظر في
وجه البائع والكباش . . فإذا تعرفتم شيئا فانسحبوا بهدوء ،
وارجعوا عندي . ولا يتصرف أحد منكم بدون علمي ؛ حتى لا
يهرّب السارق ، ويتشتت القطيع .

تفرقنا ونحن نشعر بخطورة وأهمية العملية البوليسية التي
نقوم بها .

وبعد فترة قصيرة عدنا للاجتماع حول الشاحنة وخيبة الأمل
على وجوه الجميع .

نظر إلينا البيضاوي ، وفهم هبوط معنوياتنا ، فقال
ليرفعها :

- الأسواق كثيرة . وسوف نذهب إليها واحداً واحداً . ولن
نتوقف حتى نعثر على بُغيتنا .

سَرى حِماسُهُ وقوة عِزمِهِ إلينا، فصعدنا الشَّاحِنَةَ كالكِباشِ
نَضْحَك ونَمْرُحُ، وَنَحْرُكنا.



في سُوقِ اثْنَيْنِ (سَيِّدِي اليَمَانِي) جَمَعنا البِيضَاوي ونَظَرَ إلى
ساعَتِهِ :

- السَّاعَةُ الآنَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ. بَعْدَ عَشْرِ دَقائِقَ أريدُكم هُنا.
لا تَضَيُّعُوا الوَقْتَ.

وصَفَّقَ بِيَدَيْهِ فافترقنا كُلُّ واحدٍ نَحْوَ حَلْقَةٍ.

في الوَقْتَ المَحْدَدِ رَجَعْنَا فصعدنا الشَّاحِنَةَ إلى سُوقِ سَبْتِ
(بَنِي كَرَفِطٍ). وَهَكَذَا مَرَّتِ السَّاعَةُ تَلَوَّ الأُخْرَى، والسُّوقُ بَعْدَ
الأُخْرَى. وَكُلَّمَا اجْتَمَعْنَا خاوي الوِفاضِ اختَرَعَ البِيضَاوي شَيْئًا
لرَفْعِ مَعنَوِيَّاتِنَا.

وأَحْسَسْنَا بالجُوعِ مَعَ الظُّهْرِ، فَجَمَعْنَا حَوْلَ خِيمةٍ أَحَدِ
بائِعِي الشَّوَاءِ، وَأَطْعَمْنَا وَسَقَّانَا شايًا سَاخِنًا، وَعَادَ بِنَا إلى



الشَّاحِنَةِ ، مرةً أُخرى ، وَقَدْ أَحْسَسْنَا بِتَجَدُّدِ نَشَاطِنَا وَحِمَاسِنَا .
وَمَعَ الْعَصْرِ وَصَلْنَا إِلَى آخِرِ سُوقٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْقَرِيبَةِ مِنْ
مَدِينَتِنَا .

تَفَرَّقْنَا وَقُلُوبُنَا تَحْفِقُ خَشْيَةَ الْفَشْلِ ، رَغْمَ أَنَّ الْيَبْضَاوِيَّ كَانَ
أَعَدَّنَا نَفْسِيًّا لِتَقْبِيلِهِ بِقَوْلِهِ :

- إِذَا لَمْ يَنْزِلِ اللَّصُوصُ لِبَيْعِ مَسْرُوقِهِمَ الْيَوْمَ فَسَيَنْزِلُونَ غَدًا .

دَخَلْتُ الْحَلَقَةَ الْمُخَصَّصَةَ لِي وَخَرَجْتُ بِالسَّعَةِ نَفْسَهَا . فَقَدْ
كَانَ ظَاهِرًا أَنَّهَا غَيْرُ مَا أُرِيدُ . كَانَتْ الْبَائِعَةُ امْرَأَةً ، وَالْكِبَاشُ
أَغْلَبُهَا سَوْدٌ . كِبَاشُنَا بَيِضٌ إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْبَقَعِ السَّوْدَاءِ أَوْ
الْبُنْيَةِ . وَهِيَ مَوْشُومَةٌ بِالْأَلْوَانِ حُمْرَاءَ وَنِيلِيَّةَ زَرْقَاءَ ، وَسَمَاوِيَّةَ بَارِدَةٍ
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

طَلَعْتُ عَلَى ظَهْرِ الشَّاحِنَةِ فِي انْتِظَارِ بَقِيَّةِ الرَّفَاقِ ، وَأَخَذْتُ
أَمْسَحُ السُّوقَ مِنْ أَعْلَى ، فَبَدَأَ لِي كَصْحَنِ وَاسِعٍ عَامِرٍ بِالسَّفَنَجِ (*)
مِنْ كَثْرَةِ مَا تَجَمَّعَ فِيهِ مِنَ الْحَلَقَاتِ حَوْلَ قِطْعَانِ الْكِبَاشِ .

(*) حلقات من عجبن مقلي .

لَا حَظُّ أَنْ الْحَلْقَةَ الَّتِي دَخَلْتُهَا هِيَ الْوَحِيدَةُ الَّتِي كُلُّ
كِبَاشِهَا مِنْ لَوْنٍ وَاحِدٍ . بَقِيَةُ الْحَلَقَاتِ كَانَتْ تَتَعَدَّدُ فِيهَا أَلْوَانُ
الْكِبَاشِ .

عَادَ بَقِيَةُ الزُّمَلَاءِ يَنْفُضُونَ مَلَابِسَهُمْ مِنْ غُبَارِ السُّوقِ
وَالْبَهَائِمِ وَقَدْ خَبَا بَرِيقُ عُيُونِهِمْ مِنَ الْحَيَةِ وَالتَّعَبِ .

وَوَقَّفَ الْبِيضَاوِي أَمَامَنَا يَفْرِكُ يَدَيْهِ ، وَيَبْحَثُ عَنْ كَلِمَاتٍ
لِلتَّسْرِيَةِ عَنَّا . وَحِينَ تَحَلَّقْنَا حَوْلَهُ سَأَلَ :

- مَنْ رَأَى مِنْكُمْ شَيْئًا غَيْرَ عَادِي ؟

فَكَّرْنَا ، وَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ، وَهَزَّ الْبَعْضُ أَكْتَافَهُمْ ، فَقَالَ
الْمَعْطِي :

- رَأَيْتُ (عَيْشَةَ حَمِيقَةَ) .

وَعَيْشَةُ حَمِيقَةُ كَبُشٌّ بِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ ، فَضَحِكَ الْبِيضَاوِي ، وَلَمْ
يُرِدْ أَنْ يَكْتُبَ بَقِيَةَ الْمُلَاحَظَاتِ .

تَرَدَّدْتُ أَنَا ، فَلَمْ أَكُنْ أَرَى أَيَّ شَيْءٍ غَيْرَ عَادِي فِي قَطِيعٍ مِنَ
الْأَغْنَامِ السَّودَاءِ .

في النِّهايةِ ، وَحَتَّى لَا تَبْقَى الْمَلاحَظَةُ على ضَمِيرِي ، رَفَعْتُ
يَدِي ، وَقُلْتُ :

- لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ ما رَأَيْتُهُ غَيْرُ عَادِي . . .

هَنا قاطِعِني (وَلَدَ زُهَيْرُ) الَّذِي عادَ لاهِثًا من جَوْلَتِهِ ليقُولَ
للبيضاوي :

- رَأَيْتُهُ . رَأَيْتُهُ . . .

سألَ البِيضاوي :

- مَنْ ؟

- الرَّجُلُ ، السَّارِقُ الكَثَّ الحَاجِبِينَ ، عَمَّ أَحْمَدُ . صِحَّتْ
مَحْتَجًّا :

- لَيْسَ عَمِّي ! لَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنَا جَمِيعًا . . .

لَكِنَّ البِيضاوي أَسْكَنَّا بِقَوْلِهِ :

- أَيْنَ رَأَيْتُهُ؟ انتَظِرُوا أَنْتُمْ هُنا . تَعالِ أَنْتَ مَعِي .

قَادِ الْبِيضَاوِي (وُلِدَ زُهَيْرُو) أَمَامَهُ ، وَذَهَبَ بِهِ ، وَاخْتَفَى فِي
زِحَامِ الْحَلَقَاتِ .

صَعَدْنَا نَحْنُ فَوْقَ الشَّاحِنَةِ ، وَسَأَلَنِي عِنَانٌ عَمَّا كُنْتُ سَأُولُهُ
كَمَا لَحِظْتُ ، فَأَشْرَتْ لَهُ نَحْوَ الْحَلَقَةِ الْوَحِيدَةِ ذَاتِ الْقَطِيعِ
الْأَسْوَدِ .

انْضَمَّ إِلَيْنَا رَحَّالُ الْبَرَّاقِ عَارِضُ النَّايِ فَقَالَ :

- لَنَنْزِلَ وَنَذْهَبَ لَنَرَى مِنْ قَرِيبٍ .

نَزَلْنَا بِسُرْعَةٍ وَقَصَدْنَا الْحَلَقَةَ . وَتَسَرَّبْنَا إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ
الْجَلَايِبِ (وَالزَّعَابِلِ) (*) وَالْحَمَائِلِ حَتَّى التَّصَقْنَا بِأَصْوَافِ
الْخِرْفَانِ .

أَخَذْنَا نَتَأَمَّلُ وَجُوهَ الْكِبَاشِ ، وَلَاحِظْتُ أَنَّ أَحَدَهَا يَنْظُرُ إِلَيَّ
نَظْرَةَ الْمَعْرِفَةِ فَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ كَبُشْنَا .

أَمْسَكْتُ بِيَدِ الْبَرَّاقِ ، وَهَمَسْتُ فِي أُذُنِهِ وَقُلْبِي يَخْفِقُ مِنْ

الْإِثَارَةِ :

(*) جمع زعبولة : جراب .

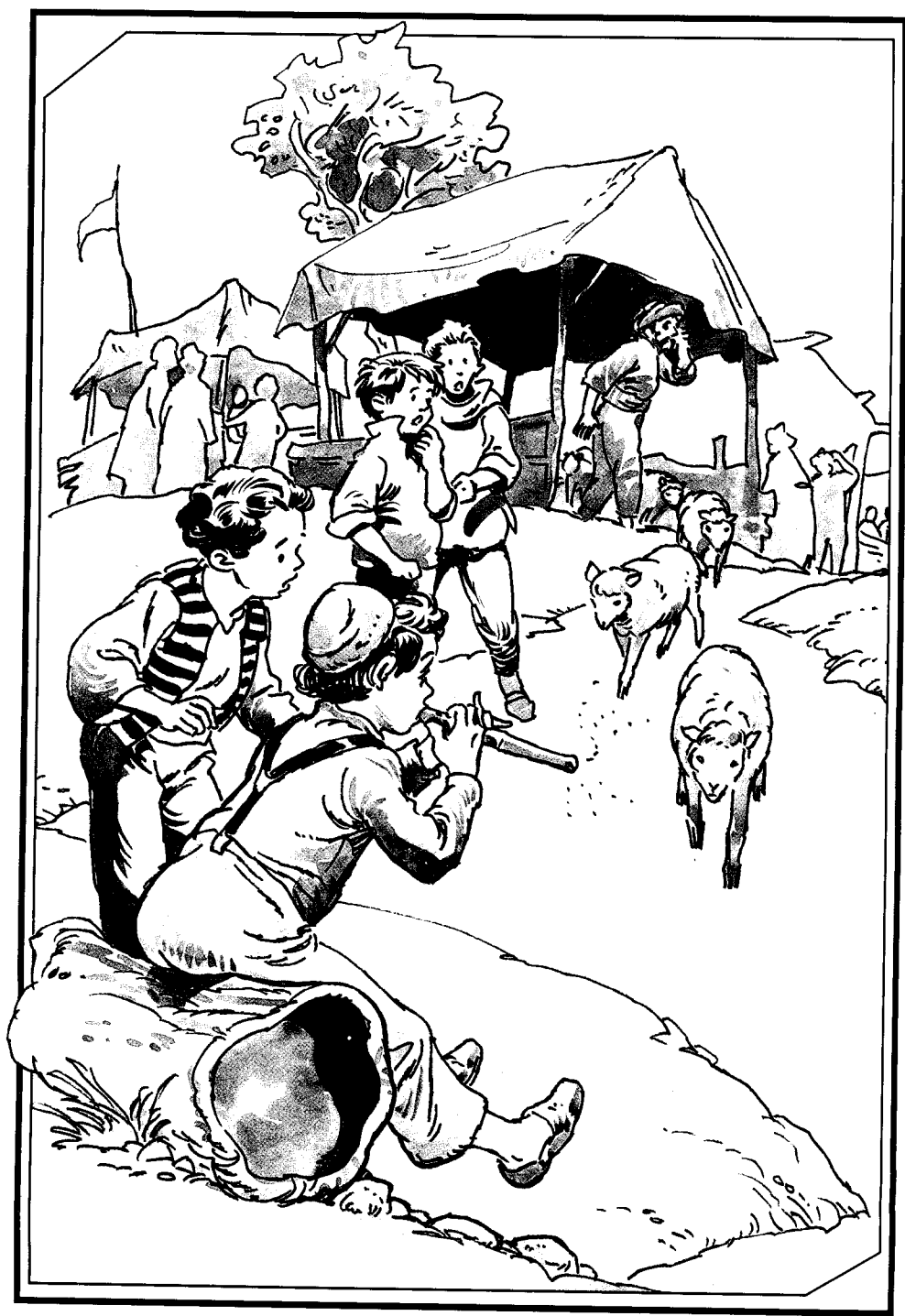
- كَبِشِي هُنَا . لَقَدْ صَبَغُوهُ بِلَوْنٍ أَسْوَدَ .

انضم إلينا عِنانٌ لِيَقُولَ لَنَا الشَّيْءَ نَفْسَهُ عَنْ كَبِشِهِ . وَفَجَاءَهُ
تَعْرِفَ رَحَالُ خُرُوفِهِ كَذَلِكَ ، فَقَفَزَ مِنَ الْفَرَحِ ، حَتَّى أَمْسَكَ بِهِ
رَجُلٌ لِيُخْرِجَهُ مِنَ الْحَلْقَةِ .

وَلَكِنَّهُ انْفَلَتَ مِنْهُ ، وَأَخْرَجَ مِزْمَارَهُ وَبَدَأَ يَعْرِفُ عَلَيْهِ اللَّحْنَ
نَفْسَهُ الَّذِي كُنَّا نَعْدُو بِهِ وَنَرُوحُ إِلَى الْغَابَةِ وَقَطِيعُنَا خَلْفَنَا . وَمَا
كَادَ الْقَطِيعُ يَسْمَعُ اللَّحْنَ وَيُشَاهِدُنَا حَتَّى تَوَجَّهَ بِكَامِلِهِ
نَحُونَا . . وَفَتَحْنَا لَهُ نَحْنُ ثَغْرَةً فِي الْحَلْقَةِ ، فَخَرَجَ خَلْفَنَا يَنْغُو
وَالْمُشْتَرُونَ فَاغَرُوا الْأَفْوَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالِاسْتِغْرَابِ !

وَأَخَذَتِ الْبَائِعَةُ تَوَلُّوْهُ وَتَصَيَّحَتْ وَتَسْتَغِيثُ . وَمَا كَادَ الْمُشْتَرُونَ
يَتَحَرَّكُونَ لِلْأَخْذِ بِحَقِّهَا وَإِرْجَاعِ الْقَطِيعِ حَتَّى كُنَّا نَحْنُ قَدْ
وَصَلْنَا إِلَى الشَّاحِنَةِ . وَهُنَاكَ التَّقِينَا الْبِيضَاوِيَّ الَّذِي صَعَدَ عَلَى
ظَهْرِ الشَّاحِنَةِ كَأَحَدِ الْخُطَبَاءِ ، وَأَخَذَ يَشْرَحُ لِلرِّجَالِ الْهَاجِمِينَ
عَلَيْنَا قِصَّةَ الْكِبَاشِ الْمَسْرُوقَةِ .

وَمَا إِنْ سَمِعَتِ الْمَرَأَةُ كَلَامَ الْبِيضَاوِيِّ حَتَّى بَدَأَتْ تُحَاوِلُ



الإفلات والفرار. ولكنَّ جمهورَ الواقفينَ أمسكوا بها، وذهبَ من
جاءَ بِرجالِ الشرطة فقبضُوا عليها.

ومَا كَادُوا يستنطقونها حتَّى اعترفتَ بِكُلِّ شيءٍ، ودلَّت على
السَّارقِ الحقيقي، وكانَ مُختبئًا في السُّوق، فقبضُوا عليه.

وركبنا نَحْنُ شاحِنتنا ومَعَنَا قطيعُنَا كاملاً غيرَ منقُوصٍ، إلَّا
مَا كَانَ مِنْ لَوْنِهِ الْأَسْوَدِ. ونَزَلْنَا المَدِينَةَ نُغْنِي ونَهْتِفُ حتَّى
دَخَلْنَاهَا دُخُولَ الْمُتَصَرِّينَ.

وعَادَ الْبَرَّاقُ بِالْكَبِشِ إِلَى دَارِهِ. واستَقْبَلَهُ زَوْجُ أُمِّهِ فَأَدْخَلَهُ
رَاضِيًا عَنْهُ، وفرَحَ الْجَمِيعُ بِعُودَةِ الْكِبَاشِ الْمَسْرُوقَةِ وَنَجَاةِ الْبَرَّاقِ
مِنَ التَّشْرِدِ.